مكان نظيف وحسن الإضاءة

الكاتب: آرنست همنغواي

ترجمة: د. هناء خليف غني

لا يحدث الكثير في هذه القصة- إنها حوار مقتضب بين نادلين في مقهى أسباني عن أحد رواد المقهى الذي يقضي الوقت في الجلوس وحيداً وأحتساء البراندي. وبرغم بساطة أسلوب القصة وقصرها، فأنها تترك أثراً عميقاً في نفس من يقرأها، إذ تدفعه الى التفكير ملياً في مشكلة الوحدة التي يعاني منها العديد من بني البشر بعامة وكبار السن بخاصة، في عالمنا المعاصر. جدير بالذكر إن الشيخوخة وأثارها السلبية هي أحد الثيم المفضلة في كتابات همنغواي.

كان الوقت متأخراً وقد غادر الجميع المقهى آلا الشيخ الذي جلس في ظل أوراق الشجر أمام الضوء الكهربائي. عادة ما يكون الشارع متربأً في النهار ولكن الندى خفف من تصاعده في الليل. أعتاد الشيخ الجلوس في المقهى حتى وقت متأخر من الليل. ولأنه يعاني الصمم، كان الهدوء الذي يلف المكان في الليل يبعث السكينة في نفسه وينأى به عن ضجيج السيارات وزحام المدينة نهاراً. ورغم تمتعه بسمعة جيدة كزبون هادئ، فضلَ النادلان مراقبته لئلا يغادر المقهى دون دفع الحساب وهذا ما يحدث عادةً عندما يغلبه الخمر.

قال احد النادلين لزميله متحدثاً عن الشيخ " أتعلم، لقد حاول الانتحار الأسبوع الماضي".

" لمَ ؟"

" كان يائساً"

" ما السبب ؟"

" لا شيء!"

" ماذا تعني بقولك لا شيء؟ "

" أنه واسع الثراء "

جلسا إلى طاولة كانت قريبة من الجدار الملاصق لباب المقهى ونظرا إلى الصالة حيث تخلو جميع الموائد من روادها الا حيث كان الشيخ جالساً في ظل أوراق الشجر التي تحركت قليلاً بهبوب الرياح. شاهد النادلان عبر نافذة المقهى فتاة حاسرة الرأس تسرع في خطاها بصحبة أحد الجنود الذي تلألأت الرتبة البرونزية في ياقته تحت أشعة مصباح الشارع الكهربائي.

قال أحد النادلين "سيقبض عليه الحرس أن لم يسرع"

" لا يهم ذلك ما دام سيحصل على ما يريد" ، أجابه زميله.

" الأفضل له الإسراع في مغادرة المكان. لقد مر أفراد الحرس من هنا قبل خمس دقائق" دق الشيخ الجالس في الظل بكأسه الصحن. " ماذا تريد؟" سأله النادل.

نظر إليه الشيخ بهدوء وقال" كأس براندي أخر".

" ستفقد وعيك يا رجل" قال النادل معلقاً، ثم خاطب زميله قائلاً " سيقضي الليل بطوله هنا وقد غلبني النعاس. لا أوي أبداً إلى الفراش قبل الثالثة صباحاً. كاد هذا الشيخ أن يقتل نفسه الأسبوع الماضي"

تناول النادل زجاجة البراندي وصحناً أخر من الكاونتر وسار باتجاه مائدة الشيخ. صب النادل الشراب حتى امتلئ الكأس وقال مخاطباً الشيخ الأصم" كدت أن تقتل نفسك الأسبوع الماضي"

أشار الشيخ بأصبعه وقال " قليلاً من البراندي". صب النادل الشراب في الكأس حتى سال أدنى الصحن وبعد أن شكره الشيخ، أعاد النادل زجاجة الشراب الى مكانها على الرف وجلس ثانية مع زميله الى المائدة وقال:

" الشيخ مخمور الآن"

" كما يحدث في كل ليلة!"

" لماذا أراد أن يقتل نفسه؟"

" من أين لي أن أعرف!"

" كيف قام بذلك؟"

" حاول خنق نفسه بالحبل!"

" من أنقذه؟ من قطع الحبل؟"

" أبنة أخية".

" لمً فعلت ذلك؟"

" خوفاً على روحه".

" كم عنده من المال؟ "

" الكثير "

" لا بد أن عمره يناهز الثمانين."

" على أية حال، أعتقد أن عمره لا يقل عن ذلك"

" أتمنى أن يغادر المقهى . لا أوي للفراش بل الساعة الثالثة. بالله عليك، أنه وقت جد متأخر للذهاب للنوم"

" أنه يحب السهر ليلاً"

" أنه وحيد. أنا لست وحيداً. لدي زوجة تنتظرني في الفراش."

" كان لهذا الشيخ زوجة أيضاً".

" لا فائدة ترجى من وجود زوجة معه الآن"

" لا يمكنك أن تجزم بذلك. ربما من الأفضل أن يعيش بصحبة أمراة."

" ابنة أخيه تتولى رعايته."

" أعلم ذلك، أخبرتني أنها قطعت الحبل."

" لا أتمنى بلوغ هذا العمر. الشيخوخة أمر مزعج."

" ليس دائماَ، فهذا الشيخ لطيف ومتأنق. أنه يشرب من دون أن يريق الشراب. أنظر إليه! أنه مخمور الآن ولكنه حسن الهندام."

" ليس بي رغبة في النظر إليه. أتمنى أن يغادر المقهى. أنه لا يحترم من يعمل ويشعر بالتعب."

نظر الشيخ ملياً حوله . تأمل الكأس في يده والموائد الخالية والنادلين، ثم قال" كأس براندي آخر"

أتى اليه النادل المتعجل وقال " أغلقنا". هذا ما تعود عليه الندلاء عند التحدث مع الزبائن خاصة المخمورين، فهم لا يقولون العبارات كاملةً وإنما يعمدون الى حذف بعض العبارات.

" كفى شراباً الليلة. حان وقت الأقفال."

قال الشيخ " كأس براندي آخر."

" كلا! ليس بعد الآن. حان وقت الأقفال."

مسح النادل حافة المنضدة بمنشفة وهز رأسه. وقف الشيخ وعد الكووس ببطء وأخذ حافظة النقود من جيبه ودفع ثمن الشراب تاركاً نصف فرنك بقشيش للنادلين.

راقب النادل الأكبر سناً الشيخ وهو يسير عبر الشارع . كان الشيخ يترنح في مشيته ولكنه لم يفقد شيئاً من وقاره وهيبته.

" لماذا لم تدعه يواصل الشرب في المقهى. الساعة لم تتجاوز الثانية والنصف صباحاً ", قال النادل الشيخ وهو منهمك بأقفال المقهى مع زميله.

" أريد أن أذهب للبيت".

" كان بمقدورك السماح له بالمكوث ساعة أخرى"

" الساعة تعني الكثير لي ، أكثر مما تعني له."

" الساعة لا تقدم ولا تؤخر. أنها مجرد ساعة"

" تتحدث كأنك شيخ. بمقدوره شراء زجاجة نبيذ وشربها في البيت."

" ليس الأمر سواء!"

" لا أنه ليس كذلك". أومأ النادل المتعجل برأسه موافقاً. لم يرغب أن يكون ظالماً. كان في عجلة من أمره فقط."

" وأنت؟ إلا تخشى من الذهاب إلى البيت قبل الوقت المعتاد؟"

" هل تحاول أهانتي؟"

" كلا! مطلقاً. أنا أمزح فقط"

"كلا, أنا واثق من نفسي." قال النادل المتعجل وهو يسحب حواجز باب المقهى المعدنية إلى الأسفل.

" لديك الشباب والثقة بالنفس والعمل. لديك كل شيء." قال النادل الشيخ.

" وأنت ماذا ينقصك؟"

" كل شيء عدا العمل"

" لديك ما لدي."

" كلا. لم أشعر أبداً بالثقة في النفس . كما أنني لست شاباً."

" هيا! كف عن هذا الحديث السخيف وأقفل المقهى."

" أنا من الذين يودون البقاء طويلاً في المقهى, من الذين لا يودون الذهاب للنوم مبكراً، من الذين في حاجة إلى الضوء في الليل!"

" أود الذهاب للمنزل والاستلقاء في الفراش" قال النادل الشاب المتعجل.

" لكل منا أسلوبه الخاص في الحياة. المسألة لا تتعلق بالشباب والشعور بالثقة فقط رغم أنهما من أروع الأشياء في هذه الحياة. في كل ليلة أقفل المقهى رغماً عني, أذ قد يكون هناك أحد ما في حاجة إليه."

" لا تبتئس. هناك بارات تفتح طوال الليل."

" هذا صحيح. ولكنك لا تدرك ما أقصد. الأمر مختلف. فهذا مقهى نظيف ومريح. أنه حسن الإضاءة. وفي الليل يمكن للمرء التمتع بالجلوس في ظل أوراق الشجر أيضاً."

" ليلة سعيدة" قال النادل الشاب. " ليلة سعيدة" أجابه النادل الشيخ."

بعد إطفاء المصابيح الكهربائية، أنهمك النادل الشيخ في حوار داخلي كشف من خلاله عن مكنونات نفسه ن أذ قال " أنه الضوء بالطبع. ولكن، إلى جانب ذلك، من الضروري أن يكون المكان نظيف ومرتب. الشيخ الأصم ليس بحاجة إلى الموسيقى، وهو لا يستطيع الوقوف أمام الكاونتر في الحانة بكرامة رغم أن هذا هو كل ما يملكه في تلك الساعات. ما الذي يخشاه؟ لم يكن الخوف والرعب بالطبع. أنه اللاشيء الذي خبرهُ تماماً. أنه يشكو الفراغ والشعور بالعدم. هذا كل ما في الأمر. قليلاً من الضوء والنظافة والترتيب، هذا كل ما يحتاجه شيخ مثله. البعض عانى كثيراً من هذا الشعور ومنهم هذا الشيخ الذي أدرك أن حياته تفتقر لما يجعلها ذات معنى.". أبتسم النادل الشيخ وهو يقف أمام كاونتر أحد الحانات.

سأله النادل " ماذا تريد أن تشرب؟"

" لا شيء!"

" مجنون آخر!" قال نادل الحانة وأشاح بوجهه بعيداً.

" كأس صغير" وأردف قائلاً " الأضواء مبهرة ولطيفة ولكن الحانة يعوزها الترتيب" قال النادل الشيخ.

نظر إليه نادل الحانة دون أن يجيب. كان الوقت متأخراً للدخول في حديث مع الشيخ.

" هل تريد كأس آخر؟" سأل نادل الحانة.

"" كلا" قال النادل الشيخ وهو يهم بمغادرة المكان. لم تكن البارات والحانات يوماً من الأماكن المفضلة لديه. مقهى نظيف وحسن الإضاءة كان أمراً مختلفاً. والآن سيتوجه إلى غرفته الفارغة في المنزل. سوف يستلقي في الفراش ومع انبلاج الفجر، سيخلد للنوم. " حسناً، بعد كل هذا العناء، أغلب الظن أنه الأرق. العديد من الأشخاص يعانون منه.

تـــــمـــت